

## إيريك فروم - حب الحياة

### محاورة فكر فروم (1)

\* Reiner Funk راينر فونك

ترجمة: د. حميد لشمب (\*)

لا يمكن أن نصف بسهولة ما يميز مؤلفات فروم. فقد كان له اهتمام واسع بحقول معرفية مختلفة، وكان عدد قرائه جد كبير، لأنه لم يعود المتلقي على لغة أكاديمية معقدة ونظرية، بل على نصوص حيوية سهلة القراءة. المهم بالنسبة له كان هو ما يحس به مباشرة وما يمكن التعبير عنه بكلمات بسيطة وما يمكن نقله للآخرين إذا كان مهما بالفعل بالنسبة لهم. واللحظة المهمة في طريقة كتابته كانت تلك التي كان يحس فيها بأن المواضيع المدروسة مهمة بالنسبة له، وأنه بإمكانه أن يشغل بها. وقد كانت تربطه بالمواضيع التي كان يكتب عنها علاقة خاصة. يعني أن موضوعية الدراسات التي كان يكتبها كانت لها علاقة ذاتية شخصية به كإنسان. فقد كان عليه أن يتمتنع ما كان ذاتيا بالنسبة له ليتيقن مما إذا لم تكن له أهمية بالنسبة للوجود الإنساني. لم يكتب فروم شيئا آخرا خارجا عما عاشه وما عاشه. وإذا حاول المرء أن يبحث عن نصوص نظرية محضة فإنه لن يجد شيئا من هذا القبيل عنده. فالعيش والفكر كانا عنده شيئا واحدا، يعني متطابقان. وقد كان نقطة انطلاقه دائما ما كان يعيشها في لحظة معينة من حياته. وهذا بالضبط، في نظري، هو ما يميز الأعمال العلمية لفروم. وعلى الرغم من أن أعماله هذه قد أغنت الحقل العلمي، فإنه كان أقرب إلى الفنانين والأدباء المبدعين منه إلى بعض الباحثين الأكاديميين.

سأحاول أن أستعرض حياة فروم في عجالة لأمر إلى شيء آخر: ولد وتربى كابن وحيد في عائلة يهودية أورثوذوكسية في مدينة فرانكفورت الألمانية. وعلى الرغم من أنه تخلّى، في منتصف

(\*) باحث مغربي مقيم في النمسا عضو الجمعية العالمية لفروم.

العشرينات من القرن الماضي، عن الدين اليهودي، فإنه لم يتخلف عن بحثه عن الطريق الصحيح، الذي رافقه طوال حياته. وأثناء دراسته للسوسيولوجيا التقى بالتحليل النفسي الفرويدي. وقد أصبح معروفاً في أواسط هذا الأخير بعد قرائه، سنة 1926، بال محللة النفسية المعروفة فريدا رايخمان Frida Reichmann. وأهم شيء بالنسبة له لم يكن هو دراسة اللاوعي الفردي فقط، لكن كذلك اللاوعي الاجتماعي، الذي يساهم في بلورة طريقة تفكير وإحساس وسلوك معينة عند أنساب يتمنون إلى طبقة اقتصادية واجتماعية واحدة، والذي يساهم في قهرهم بسبب إدماجهم في هذا المحيط الاقتصادي والاجتماعي.

وقد أصبح فروم في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي من المفكرين المهمين بالنسبة لمعهد الأبحاث الاجتماعية، أي ما سمي فيما بعد مدرسة فرانكفورت، وقد ظل به من سنة 1930 إلى سنة 1939. وعند انتهاء دراسته في برلين للتحليل النفسي سنة 1930، وفتحه لعيادته الخاصة، وفي نفس الوقت الذي بدأ فيه نشاطه المهني في معهد الأبحاث الاجتماعية، سقط فروم مريضاً ضحية سل روئي، فرض عليه البقاء ثلاثة سنوات تقريباً في المستشفى. وفي سنة 1934، بعد شفائه، وبعدما وصل هتلر إلى الحكم في ألمانيا، غادر هذه الأخيرة في اتجاه الولايات المتحدة الأمريكية. استقر فروم ما بين 1934 و 1950 بنيويورك. وقد أصبح معروفاً، بعد نشره لكتابه الأول: *الخوف من الحرية* Die Furcht vor der Freiheit سنة 1941، ك محلل نفسي للمجتمع. وقد فرض عليه مرض زوجته الثانية الرحيل إلى المكسيك، حيث عاش إلى سنة 1974، باستثناء خمسة أشهر في السنة التي كان يقضيها بالولايات المتحدة الأمريكية كمدرس في جامعات مختلفة وفي معهد التحليل النفسي بنيويورك. وبعد وفاة زوجته الثانية، تزوج فروم للمرة الثالثة بأمريكية عاش معها إلى أن مات سنة 1980. وقد دفعه حبه لها والتجربة التي منحها له هذا الحب إلى تأليف الكتاب الذي قرأته الملائكة في أمريكا: *فن الحب* Die Kunst des Liebens سنة 1955.

ما لا يعرفه الكثيرون هو أن فروم كان ملتزماً سياسياً، وخاصة في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، ذلك أنه ساهم في تأسيس حركة السلم الأمريكية، ووقف ضد التهديد بالسلاح النووي، وأثر على السياسة الأمريكية بدراساته التحليل النفسية للمشاكل السياسية الأمريكية، والتزامه باشتراكية إنسانية، ووقفه ضد حرب فيتنام، وقد كان بالفعل أشهر المحللين النفسيين الأمريكيين، حيث أن المحاضرات التي كان يلقاها كان يحضرها كل مرة أكثر من ألفين (2000) مهمتهم.

في سنة 1966 أصيب فروم بورم في قلبه، أدى به ليس فقط إلى التزام الفراش، بل وأيضاً إلى

بداية دراسة جديدة. وقد كانت إشكالية الهدم الإنساني هي الإشكالية الأساسية التي كانت تشغله أنداك. فقد اهتدى فروم إلى أهمية الحب بالنسبة للكائن الإنساني الحي، أي ما سماه بـ Biophilie، الذي يمكن ترجمته بمحبة الحياة. لكن هذه الأخيرة تتدثر شيئاً فشيئاً في عالم أصبح الرقم فيه علامات على القدم. وقد حاول في كتابه : *التحكم في الحياة Meistern des Lebens* الوصول إلى حلول تساعد الإنسان المعاصر للخروج من هذه الوضعية الحرجة التي يوجد فيها. وقد كان الجواب الذي كان يبحث عنه هو الامتلاك أو الوجود، وقد اختار هذا الأخير، وهو اختيار نجده كذلك عند مايستر إيكهارت وعند ماركس.

الإعتماد بالوجود إذن، وتوجيه كل الاهتمام إلى الخصائص الروحية والجسدية والنفسية للإنسان هو جواب فروم. وقد كان يمارس هذا الجواب يومياً في تجاربه وفي تحليل أحلامه. وبعد رجوعه النهائي إلى أوروبا نشر آخر مؤلف له الامتلاك أو الوجود Haben oder Sein سنة 1976. وقد أصيب للمرة الثانية (1977) والمرة الثالثة (1978) بمشاكل في القلب، وتوفي خمسة أيام قبل وصوله إلى الشمانين يوم 18 مارس 1980 بسبب سكتة قلبية.

وقبل الحديث عن معاصرة فكر فروم، صلب موضوعنا هذا، فإني أريد أن أذكر ولو في عجلة بالعمود الفقري لطريقة تفكيره، وما كان يهمه بالأساس في نشاطه الفكري.

### ١- الأساس في فكر فروم: التحليل النفسي للمجتمع .

منذ بداية دراسته وخاصة بدأية اهتمامه بالتحليل النفسي حاول فروم أن يفهم دوافع سلوكيات الناس، التي تؤدي بهم إلى أن يفكروا ويسلكوا ويشعروا بطريقة واحدة. هذه الأخيرة التي تحجب عنهم إمكانيات إنسانية أخرى. وقد سمى فروم الدافع الجوهرى الذي يؤدي بالناس إلى التفكير والشعور والسلوك بالطريقة نفسها بالخاصة المجتمعية الموجهة ، وسمى دوافع وإمكانيات الوجود الإنساني المختبئة فيها باللاوعي المجتمعي.

على العكس من فرويد، الذي يرى مصدر معاناة الإنسان نابعة من غرائز بيولوجية، فإن فروم ينطلق في تحليله النفسي للمجتمع من بديهية مفادها أن الطاقة النفسية، التي توجه سلوكيات توجيهاً، لا تتأثر بالغرائز، بل بمتطلبات الحياة الاقتصادية والاجتماعية. فمضمون تجلي بنية النفسية، أي ما نريد أن نتحققه عن طريق كل تجلي سلوكي، هو بالنسبة لفروم نتيجة صيرورة تقمصنا للمتطلبات الاقتصادية والاجتماعية. إننا نحب أن نتبع وبوأه ما يجب أن يساهم في النشاط الاقتصادي والاجتماعي لأنظمة. والمجتمع هنا لا يؤثر فقط، بل إنه يطبع ويحدد نفس الإنسانية.

إن الإنسان الذي يريد أن يظهر بمظهر الناجح مجتمعاً يتحاشى أن يظهر نقط ضعفه، ويعرف بأخطائه، وبمظهر الصعوبات التي تواجهه. فكل مثل هذه التجارب السلبية لا تليق بإنسان من هذا القبيل. فالناجح لا يجب عليه إخفاء معاشة السلبي عن الآخرين فقط، بل عليه كذلك ألا يشعر بها. إنه يتمرن على التفكير الإيجابي، ويدأ في إخفاء كل مناطق الضعف في معيشته، وكل إخفاقاته، ليعدها من وعيه. أكثر من هذا، فإنه يجب على من يريد أن يصبح ناجحاً بالفعل أن «يكون دائماً جيداً»، وأن يكون له إحساس جيد، وأن يتجنب معاشرة الناس غير الناجحين. ومن أجل الإنماء إلى الناجحين، فإن معاش الضعف يقصى أو يكتب أو ينفي.

لا أحد إذن يمكنه أن يناقش كون هذا النوع من الإنسان الناجح يوجد اليوم، هذا الإنسان الذي يؤثر أكثر في فكر وشعور وسلوك الكثير من الناس. وهذا بالضبط ما يدفع إلى اتخاذ هذا النوع من التطرر المجتمعي موضوعاً للدراسة من طرف التحليل النفسي. وتظهر الملاحظة بأن هذا النوع من البشر يصبح أكثر فأكثر منتشرًا، يعني أن الكثيرين يحاولون بكل قواهم أن يصبحوا مثل هذا المودج. أن يكون الإنسان ناجحاً، وأن يخفى كل ما هو ضعيف فيه وينفيه، هو ليس فقط تجيلاً تقليدياً موسمياً، لكنه ظاهرة قائمة بذاتها، تنتشر أكثر فأكثر بكثافة، وتحاول الوصول إلى كل ميادين الحياة، وتؤثر كذلك في الأماكن التي لا يكون فيه النجاح مهمًا، كما هو الحال في المرض أو عند فقدان شخص عزيز.

سأحاول فيما يأتي عرض ستة اكتشافات لفروم، والتي أعتقد أنها ماتزال مهمة حاليًا كذلك.

## 2- اكتشافات فروم وأهميتها في الوقت الحاضر.

### أ. اقتصاد السوق كمبدأ بنائي جديد.

لم يسبق في كل حقب التاريخ الإنساني أن احتل اقتصاد السوق الأهمية التي يحتلها في وقتنا الراهن. فلم يعد اقتصاد السوق أداة لتلبية الطلب فحسب، بل أصبح فلسفة للإقتصاد، بل وأكثر من هذا فإنه بالنسبة للكثيرين يعني الحياة بأكملها. كل المجهودات توجه إلى نقطة واحدة، تحاول أن تعجب عن سؤال ما إذا كان بالإمكان «تسويقاً» شيء ما. وينطبق هذا بالدرجة الأولى على المتوجات الصناعية. فلا يطور المنتج إلا من أجل تصريفه وتسويقه. وإذا نجح في إيجاد سوق لهذا المنتج فإنه يتبع بكميات كبيرة، دون مراعاة قيمة الأهمية من استعماله من طرف الإنسان.

تحكم تجارة السوق في السياسة كذلك، التي أصبحت اليوم تهتم فقط بما قد «يعجب» الناخب، من أجل تحسين صورتها عنده. لا يهم أي نوع من السياسة تمارس، لكن المهم هو كيف

تقدّم هذه السياسة. ولم يعد للثقافة أي ارتباط كبير بالجمل أو بالفن، بل إنها تقيس نفسها بالنظر إلى ما تجنيه من الربح، يعني بكيفية بيع منتوجاتها، وحتى عندما يتعلق الأمر بنا نحن أنفسنا، فإن الأمر لم يعد يتعلق بشخصيتنا، بل بما نقدمه ونعرضه عن هذه الشخصية.

لا يراعي اقتصاد السوق ضائقة يد الآخرين، لأن المهم هو الربح المادي والنجاح المرافق له. وحتى الخدمات الاجتماعية أصبحت موجهة بنفس الطريقة. الطبيب الناجح هو ذاك الذي يربح أكثر. والمعارف العلمية نفسها يجب أن تكون ناجحة، والنجاح يتمظهر في كمية المنشورات، وفي الموقع الذي يحتله المرء على اللائحة.

لم يكن الأمر على هذا الشكل قبل خمسين سنة. لقد كانت الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية محددة بالحق في «السلطة»، وبالضبط «السلطة» كرأسمال علمي أو انتماء طبقي، أو امتلاك الحقيقة، أو تأهيل متخصص، إلخ. لقد أظهر فروم في الثلاثينيات من القرن العشرين، بمساعدة مبدأ «التوجيه السلطوي»، أن الحق في السلطة هو الذي وجه في الماضي كل ميادين الحياة الإنسانية. وقد أعربت حركة 68، كحركة احتجاج، على رفضها لهذه السلطة، وبهذا فإنها شكلت شرطاً أساسياً لاقتصاد السوق.

إن مبدأ توجيه السوق لفروم، والذي طوره في الأربعينيات من القرن الماضي (و خاصة في كتابه التحليل النفسي والأخلاق، المنشر في 1947) يساعد على فهم الكثير من «خاصيات الوقت». فإذا كان الكل اليوم يتحدث عن وجوب الإندماج، والمرونة، والحركة، أو عندما يتحدث المرء عن وجوب امتلاك أنا Ego قوي وعن وجوب امتلاك شخصانية خاصة، وعندما يتحدث المرء عن وجوب البقاء هادئاً وعاطفياً عوض امتلاك شعور قوي، فإن هذا يعبر عن امتلاك كل خصصيات الإنسان المعاصر، لأن كل ذلك يتضمن الشروط الضرورية لنجاح اقتصاد السوق، ولأن هذا السوق قد أصبح أهم مبدأ في أغليّة ميادين الحياة.

من وجهة نظر سيكولوجية، فإن مبدأ توجيه السوق يعني أن الوجود الخاص لإنسان ما، أي إمكاناته ومهاراته الفعلية وحاجياته وأفكاره، ليس مهمّاً، بل المهم هو ما يمكن تسويقه، ما يعجب، ما هو معلم بطريقة ذكية. إن الأمر لا يتعلق إذن بالوجود الخاص والمضمون الفعلي لهذا الوجود، بل بما يمكن للمرء أن يظهره ويبيّنه من هذا الوجود. ما يساعد المرء على نجاحه هو ليس ما هو معطى فيه وكامن فيه، بل ما يمكن إنتاجه وإظهاره، وبهذا فإن توجيه السوق يؤدي نظرياً إلى نزع كل قيمة عن الوجود الخاص للإنسان وعن تجاريته الشخصية.

وتحاول النفس الإنسانية التعمويض بطرق مختلفة عن هذا الفقر في الوجود الذاتي وفي التجارب

الشخصية. وقد أوضح فروم بعض التعويضات الممارسة في الغالب. ومن بين التعويضات الممارسة حالياً هناك تكثيف الإهتمام بالإمتلاك عوض الوجود. وسنوضح فيما سيأتي هذا الإكتشاف الفرومي المهم.

### ب: الإمتلاك عوض الوجود:

إذا كان المرء قد ساء فهم البديل الذي قدمه الإمتلاك والوجود عند نشره سنة 1976، واعتقد أنه يطالب بالتخلي عن الإمتلاك، فإن فهمه الصحيح قد بدأ مع تقوية خسارة الوجود من طرف توجيه السوق. وتعاش هذه الخسارة من طرف الكثير من الناس اليوم بالشعور بفراغ Leere داخلي، ويطلب دائم لاقتناء شيء ما، أو بالشعور بخواص Langweile لا يعرف المرء ما يجب عليه عمله، أو بعدم الرغبة في عمل أي شيء دون مؤثر خارجي، أو بنيات خوف من الضياع، طالما لا يستطيع المرء التعويض عن هذا الشعور بالضياع.

وكيفما كان الإحساس بفقر الوجود، فإن التعويض المقدم حالياً هو عدم إمكانية إنتاج شيء ما. فالتجيئ الإمتلاكي لا يعني تعويض الخيرات غير المادية بخيرات مادية. على العكس من هذا فإن الإمتلاك يتأسس اليوم أكثر فأكثر على خيرات غير مادية كالإبداع، الصحة، النشاط، الحيوية، العفوية، القوة الأخلاقية، إلخ. إن التوجيئ الإمتلاكي يعني دائماً التأسيس التعويضي للوجود الخاص عن طريق إمتلاك قيم وقناعات ومعارف وحقوق وجمال، أو عن طريق امتلاك شخصية ذاتية. ومنطق هذا الإمتلاك هو أن ما هو مهم ليس هو ما يمكننا أن نخرجه من خيراتنا، لكن ما ندعيه بنا. ولهذا السبب فإن التوجيئ الإمتلاكي يعد أهم من التوجيئ الوجودي. فالرغبة في الإمتلاك تأخذ مكان الرغبة في الوجود.

### ج. إعطاء الأولوية للواقع المصطنع.

للإكتشاف الثالث لفروم علاقة مباشرة مع تعويض الوجود عن طريق التوجيئ للإمتلاك. إن الرغبة في الإمتلاك لا تقتصر فقط على البضائع وال العلاقات والقيم، إلخ، إنها تعمد كل هذا لتصل إلى معاش للواقع من نوع آخر. لقد تعودنا منذ قرون عديدة على الرغبة في معيشة الواقع بطريقة نفهمها بها طبقاً لقوانينها ونحاول أن نطبقها آخذين بعين الاعتبار القوانين الجاري بها العمل. والواقع أن هذا قد اندر حالياً، فما يهم وما يلفت الأنظار هو صنع الواقع، وإعطاء الأسبقية للواقع المصطنع. إن الإعتراف بالواقع والبحث عنه أو بناء حقيقة مصطنعة كانت موجودة منذ القدم، وغير دليل

على ذلك هو صنع الحقيقة الخيالية في الالهوت في عصور الحكم المطلق للكنيسة. لكن ما هو مغاير هو أن إمكانية خلق واقع وهي قد أصبحت في الوقت الحاضر أكبر مما كانت عليه في القديم، وبالخصوص بمساعدة التقنيات الإلكترونية الحديثة في مجتمع اللهو الصناعي. إن مجتمع اللهو الصناعي، مجتمع المعاشات الخاصة، مجتمع التواصل - كيما كانت تسمية هذه المفاهيم التقليدية - تراهن قبل كل شيء على صنع الواقع. إن العوامل المصطنعة مثل بلاد الديزني Disneyland والأنسة سايغون Miss Saigon أكثر إثارة من اكتشاف الطبيعة أو ربط علاقة مع صديق أو صديقة، والخبر المقدم لي هو أوثق من الخبر الذي أحكيه أنا، ويشعر المرء بالأمان أكثر في العالم المصطنع منه بين حيطان منزله. والإهتمام المكثف بالمخدرات والمنتوجات المهلولة تشرح من بين ما تشرح به بتفضيل الواقع المصطنع من طرف المرء نفسه عن الواقع الفعلي(2).

وراء التفضيل المكثف للواقع المصطنع، وخاصة تفضيل عالم الخيال، توجد هناك ضرورة عدم التمكن أو عدم الرغبة فيأخذ الواقع بعين الإعتبار. وهي ضرورة صعبة، محبطة، مليئة بالآلام، مليئة بالرسوب وهدامة. فهناك القليل من الناس من يستطيع التوفيق بين كفتى تجاذبهم Ambivalenzen وإحباطاتهم، وقبول كوننا ناجحين وفاشلين، وأن الحقيقة المحيطة بنا جميلة وخطيرة، وأن الناس الآخرين يساهمون في سعادتنا وفي تعاستنا، إلخ. إن الحفاظ على توازن تجاذب الحقيقة وعلى توازن حياتنا الخاصة هو علامة على الرشد النفسي.

إذا استمر أكثر الناس في الوقت الحاضر في تفضيل الواقع المصطنع على التجاذب الواقعي، فإن هذا سيقود إلى إضعاف ملحوظ لما يسمى وظيفة الأنما، ومن ثم إلى نقص نفسي كبير. ومن الوظائف الأساسية للأنا هناك على سبيل المثال التحكم في الواقع يعني تلك القدرة التي تمكنا من التميز بين ما هو معطى بالفعل ومانتمنه. وإذا تطلت قدرة التحكم في الواقع نهايتها، فإنه سوف لن يكون من الممكن التمييز بين ما هو معطى وما هو متخيل، وبالتالي سيحس المرء بالمخاطر تحيط به، أو سيصبح مقدماً من طرف الدوافع التي لا تطابق الواقع، وسيعيش «غفريا». والحقيقة هي أن ممتنياته ومتطلباته الغفورية لا تعبر على عفوته، بل إنها تعبّر على عدم تمكّنه من قياس ممتنياته طبقاً لما يتطلبه الواقع.

والوظيفة الأساسية الأخرى للأنا هي إمكانية تأجيل تحقيق الرغبات. ومن يوجد في عالم الحقائق المصطنعة يمكنه أن يحصل في الحين على كل شيء ضعافاً. وما يمكن لتفضيل الواقع المصطنع تقديميه هو ألا يعيش المرء الإحباط. والقدرة على الإحساس بالإحباط هو شرط ضروري للعيش في المجتمع، وبالتالي فإنه وظيفة لا يمكن الإستغناء عنها للأنا.

إن الحقيقة النفسية تقول إنه كلما تحكمنا إيجابياً في تجاذب تجاربنا في الواقع، كلما كان بإمكاننا الإعتماد على وجودنا الذاتي للعيش والوقوف على أرجلنا. ومن بإمكانه العيش من خلال قدراته الذاتية، فإنه يعيش أنه باستقرار (بقرة الأنـا)، ويسلك طبقاً لمتطلبات الواقع (طبقاً لمعنى الواقع)، ويإمكانه أن يتحمل إيجاباته (قبل الإحباط). وقبول نهاية الحياة (القدرة على الإحساس بالألم).

وقد اتبه فروم في كتابة **الأول الخوف من العروبة**، المنصور سنة 1941، إلى أن الناس الذين يعانون من ضعف أنهم، يعوضون هذا الفقر بخلق وإنتاج «حقائق مزيفة». وقد أعطى أنذاك مثالاً عن هذا بتجربة الترميم المغناطيسي، وتحدث عن التفكير المزيف، والإحساس المزيف، والرغبة المزيفة، والسلوك المزيف. ويمكن للمرء أن يقول إن الواقع الذي يقدمه لنا الإشهار ووسائل الاتصال اليوم يقود إلى تزييم مغناطيسي جماعي، يكون من الصعب معه التمييز في طريقة تفكير الأغلبية بين متوج الترميم المغناطيسي للجماهير وبين نتائج معرفة الواقع الفعلي.

والنتيجة هو أن ما بعد الحداثة قد وضعت مسألة البحث عن الحقيقة في قمطر الخيال والقديم. وقد تحدث فروم في السبعينيات من القرن الماضي عن الإنسان «المصنوع»، وعن الإنسان الذي تحكمه قوى غريبة، واستطاع أن يتعرف «على علاقة بين كيفية عمل الإنسان المصنوع والصبرورات الإنفصامية» في كتابه **تحليل الإنساني**، المنصور سنة 1973. وبهذا تحدث فروم عن «المجتمع المريض نفسيًا»، فالشخص الفصامي لا يعمل شيئاً آخر غير عيش عالمه الخيالي عرض عالمه الواقعي. وبفضل الوضع المتمثل في كون الواقع الخيالي المصنوع هو اليوم واقع جماعي، يعيش الناس كثيرون، فإن الكثيرين لا يعتبرون أنفسهم حمقى، وبهذا فإنهم ليسوا انفصاميين بالمعنى العلاجي للكلمة. إن معاناتهم الناتجة عن علاقة مرضية مع الواقع هي «علم أمراض الحالة السوية».

#### د. الخيال الترجسي الجماعي الكبير وتعريفه الضئع.

إن أحد الإكتشافات الفرومية التي لازالت لها أهمية كبيرة هي اكتشافه لمبدأ الترجسية، يعني تلك المعرفة التي تحاول أن تعيش الإنسان عن حرمانه وضعفه بالتخيل. وإذا طبق هذا المبدأ على مجتمعات مجتمعية ما، فإنه يتضح على أن هذه المجتمعات بوجه الخصوص تميل في غالب الأحيان عن طريق نرجسية جماعية التعويض عن نواقصها.

إن اكتشاف أهمية هذه الترجسية الجماعية في بداية السبعينيات قد أصبحت له أهمية قصوى في الوقت الحاضر، بحيث إن الكثير من الناس يعيشون فراغاً داخلياً، وأكتباً، خواءً كبيراً. فإذا لم

يعوض الضعف في الوجود بخلق واقع أقل تصنعا وأقل إيلاما، فإن ذلك يقود في غالب الأحيان إلى التعريض بمساعدة الخيال. إن المرأة لا يخلق جنة ووافعا يمكن التحكم فيه، بل ذاتا كبيرة تنسى الفقر في التجارب الوجودية الذاتية.

إن هذا التعريض الترجسي لا يقود فقط إلى تضخيم الذات، والإعتقاد في كمالها ونجاحها، بل يقود إلى اعتبار الآخرين، أو يكون في حاجة إلى الآخرين، ليسقط عليهم إخفاقه الخاص، وأخطاءه وقادراته وعدم كمال وجوده. إن الإنسان الترجسي هو ذاك الذي يرمي بضعف وجوده الذاتي في المجتمع الذي يعيش فيه، لكي يحاربه في هذا المجتمع. وقسمة المعاشات المتباذلة الذاتية إلى شطرين تحدث من جهة من جراء بناء حائط «غير مرئي» حول الذات، يقي هذه الأخيرة من كل نقد، ومن جهة أخرى عن طريق نقد المكان حيث أسقطت نوافذه، لكل يقي هذا المكان بعيدا عنه.

إن الإقتراب من الآخرين وربط علاقات معهم لم يعد له وجود في الترجسية التعريضية، لكنه يعيش كخطر، اللهم إذا كان الآخر أو الآخرون يقتسمون تضخيم الذات، ويطالعون بهذا التضخيم، ويعكسونه ويكملونه. فلا يقبل الآخرين إلا كمحبين وعاشقين أو العكس لتضخيم الذات. وطالما قاموا بهذه الوظيفة وساهموا في الشرف الكبير لتضخيم الذات، فإن التقرب منهم يكون مسموما به. وإذا أصبحوا نقادا، وملطخى العش، يفكرون باعتمادهم على قدراتهم، بشراً يشعرون ويسعون، فإنهم يقصون إلى الخلاء.

وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإن المساهمة الكبيرة التي لم تتفذ إلى حد الآن، التي خلفها فروم، تمثل في أنه طبق في كتابه في النفس الإنسانية، المنشور سنة 1964، هذه الديناميكية الترجسية على المجتمع، وطبقا لذلك، فإنه من الممكن أن نفهم مثلا لماذا يصبح الذين يشعرون بالخسارة في تدبير السوق، كالشباب الذي لا يرى أي مستقبل أمامه، مدفوعين إلى العنف وإلى كراهية الأجانب. فبمساعدة المبدأ القومي للترجسية الجماعية يمكن لهم لماذا تقوت الشركات القومية والعنصرية والراديكالية، ولماذا نعيش بعد انتهاء الحرب الباردة وسقوط الحائط الحديدي في أوروبا شكلا جديدا للعنصرية. فبمساعدة العدوانية والشعارات العنصرية والقومية يمكن للناس الذين وصلوا إلى الشعور بأية قيمة، أن يشعرون بأنهم مهمون وأن لهم قيمة، من طبيعة الحال على حساب الذين يكرهون والذين يقصون.

ونجد هذا الإعلاء الترجسي للذات وتحقير الغير في الميدان الاجتماعي الميكروسكوبى المتمثل في العائلة: فالسعادة الزوجية لا توجد في الغالب إلا بعكس كل العدوايات في المحيط الخبيث الذي يحيط بالزوجين، فتزداد الحياة يتأسس على عكس كل قيمة على من لا يتتمى إلى هذه العائلة، والتعاضد في المجموعات التي تطالب بالبدائل تحتاج إلى الشركات الكبرى للكيمياء بنفس

الطريقة التي يحتاج بها الناجعون اقتصاديا وسياسيا إلى إقصاء كل من إنتاجه ضعيف، لكي يتمكنا من نسيان إحباطاتهم.

### هـ. جاذبية اللاحياة وعدم الحركة.

إلى جانب التوجه طبقاً للسوق، اكتشف فروم في السبعينيات من القرن الماضي دافعاً أساسياً له أهمية كبيرة جداً في الوقت الحالي: حب اللاحياة وعدم الحركة. وسيقى هذا الاكتشاف الخامس الفرومي مهماً جداً حاضراً.

وكل التعريفات التي رأيناها إلى حد الساعة، فإن الأمر يتعلق هنا كذلك بضعف في الوجود الخاص وفي المعاشات الشخصية. فمن لا يعيش اعتماداً على طاقته الوجودية الداخلية وعلى غناه الذاتي، فإنه يشعر داخلياً بالفراغ ويكون في حاجة إلى مؤثرات خارجية لكي يعيش. والمخرج المفضل في غالباً الأحيان للخروج من هذا المأزق هو التمايل مع فراغ الحياة، والإهتمام بكل ما ليس له معنى ولا حياة.

وقد تردد فروم لمدة طوية، إلى أن نشر كتابه في النفس الإنسانية، 1964 وتحليل الهدم الإنساني، 1973، قبل أن يعلن عن اكتشافه لشيء جديد سماه مبدأ Nekrophilie الآتي من الكلمة اللاتинية (Nekros)، التي تعني الجثة الميتة، والذي اعتبره الدافع الأساسي في المجتمعات المصنعة. ومفاد مبدأ «النيكروفيلية» هذا هو تفضيل كل ما ليس فيه حياة وكل ما هو ميت عن ما هو حي. ويعظّر هذا المبدأ بقرة عند الجماعات العنيفة كالأنحرار والهولنفانز واليمين المتطرف والإرهابيين والراديكاليين أو الذين هم ضد الإجهاض. فقد أصبح الهدم بالنسبة لمثل هذه الجماعات هدفاً في حد ذاته، إنهم يمارسون العنف دون سبب، يعني فقط من أجل العنف. ويمكن اعتبار الكثير من أعمال العنف «والتي لها علاقة مع كرة الأجنبي، أو ما نلاحظه في مباريات كرة القدم، أو عند عبدة القوى الظلامية، والإتحارات الجماعية» كتعويض عن الفراغ الخالص وعن عدم القدرة على حب الحياة. وشعار مبدأ «الميكروفيلية» هو: إذا لم يكن في استطاعتي أن أحب وأن أحسي، فإنني أريد على الأقل أن أتمتع بالهدم.

وكلما تجذرت «النيكروفيلية» في الضعف في الوجود الذاتي والخير الذاتي الحي، فإنه لا يمكن شرحها فقط بتوجيه السوق. إن أسس عنف «النيكروفيلية» تمتد بجذورها في القرون التي خلت، ولها علاقة وطيدة بالزمن الذي بدأ فيه المرء يعتبر الرقم و العمليات الحسابية أهم شيء في الحياة، مما يمكن تكميمه وحسابه هي الأشياء أو الضروريات الحية الضرورية للهدف الذي يريد هذا التكميم

الوصول إليه. وقد أصبح حب اللاحياة وكل ما يمكن تكميمه رقماً بمثابة خير عام، يطابق «روح العصر»، يملئه «العقل الإنسان السليم»<sup>(3)</sup>.

إن جاذبية غير المتحرك يؤثر في كل حياتنا الشخصية والاجتماعية. وحتى في الميادين المهمة لوجودنا، ونقل بالضبط في هذه الميادين المتمثلة في القدرات الإنسانية العقلية والنفسية والتواصلية والحياة، فإن ما يكون مهما في التقنية المستعملة هو المهارة، ليتهي الأمر إلى تكميم حسابي وإفراغ الغنى الإنساني الذاتي من محواه.

إن هذه الأشكال لجاذبية «النيكروفيلية» والفراغ تمثل خطراً على الحياة وعلى الشفافة لا يقل أهمية عن الخطر الذي تمثله حركات العف النازية الجديدة والحرقة. وبالنظر إلى الوقوف بأيدي مكتوفة أمام جاذبية كل ما هو غير حي، وصعوبة فهم هذه الظاهرة لإيجاد منافذ لها، فإن لوجهات نظر فروم المتعلقة بالдинاميكية النفسية لـ«النيكروفيلية» أهمية كبيرة جداً في وقتنا هذا.

والسؤال المطروح الآن هو ما هو البديل الذي يقدمه فروم، وهل له جواب على كل ما تقدم، وهل لهذا الجواب أهمية تذكر في وقتنا الحاضر؟ وبهذا السؤال نكون قد وصلنا إلى اكتشافه السادس، والنقطة الأخيرة في عرضنا هذا.

### ز. المعرفة وفن الحياة.

حاول فروم على الدوام إيجاد استراتيجيات حلول للتحكم في الأخطاء في التطور الإنساني الذي تعرف عليها. لكن هذا لا يعني من طبيعة الحال بأنه قدم وصفات علاجية أو أوصى بسلوكيات معينة قد تقود إلى حلول. فالمقصود بـ«استراتيجيات حلول» هي توجهات وتتبع أهداف وقيم توجيهية للإرادة الإنسانية، قد تعطي للسلوك المعياري الفعلي اتجاهها وكيفاً معينين. ونورد المثال التالي لندقن ذلك: إذا كان سلوك معين ينحو جهة الإمتلاك، فإن فروم يقترح بدليلاً كحـلًّ استراتيـجي، أي توجيه هذا السلوك إلى تقوية الوجود والخير الذاتيين. فإذا تمظهر سلوك ما للتغيير عن وجوب تحمل إحباط ما، فإن فروم يقترح أن يواجه المرء هذا الإحباط عوض الهروب إلى عالم خيالية لتقوية الذات من الداخل. وليس لهذا الأمر أية علاقة بمثال التجاوز، لكنه دعم لتقوية المعاشات الذاتية. وإذا كان هدف سلوك ما مثلاً هو الواقع تحت سيطرة إنسان آخر، فإن فروم يقترح Ungehorsam كحل بديل، لتجنـيب المرء السقوـط في الـبعـية من جـراء سـلوكـه. وليس لهذا Ungehorsam أـية عـلاقـة بالـثـورةـ، بل إنه تعبير عن الإـسـتـقلـالـ الذـاتـيـ.

لم يتعب فروم من تقويم استراتيجيات حلول. إن معرفته بالبدائل ومهاراته في تقديم هذه البدائل

هي التي ساهمت في جعل فكره ذات أهمية كبيرة في وقتنا الراهن. إضافة إلى ذلك، فإن فروم قد قضى حياته كلها في محاولة دراسة نفسه لكي يحرر معاشاته الذاتية من الضغط والعكس، لكي يقوى ويتوسّع وجوده الذاتي. على كل حال فإن ما عبر عنه بغية وضعف الوجود الذاتي لا يعتبر بالنسبة له نتيجة تحليل المجتمع، لكن في نفس الوقت كقطعة من المعرفة الذاتية. وقد كان يعتبر نفسه كمظهر للمجتمع، بحيث إنه كان يعتبر التغيير في المجتمع ممكناً ببداية التغيير في الذات بتغيير الواقع في الوجود الذاتي<sup>(4)</sup>.

من هذا المنطلق، وكما سبقت الإشارة، فإن فروم أقرب إلى الأدباء والفنانين، الذين يحسون بمشاكل المجتمع ويعبرون عن ذلك بطريقة خلافة في أعمالهم. وهذا بالضبط ما يسمى عند فروم استراتيجيات حلول: عيش الحاجة والضعف والإحساس بهذا الأخير والمعاناة منه، والجواب عن هذا عن طريق الخير الداخلي الرابض في كل إنسان بطريقة خلافة، أو كما يقول فروم بطريقة متجة produktiv.

وتعني مثل هذه الإستراتيجيات دائمًا أن القوة والإمكانات الذاتية للإنسان النفسية والروحية والجسدية لابد أن تحيّن تماماً كما نجد عند الفنان. وهذا ما سماه فروم بفن الحياة. ويتميّز هذا الأخير بال التالي:

- القدرة على الإهتمام بالآخر وبوجوده واحترام هذا الوجود الخاص (القدرة على حب الآخر).
- وعن طريق ما سبق، وعلى الرغم من الإهتمام بالآخر، فإنه من الضروري كذلك الاعتماد على النفس، والبقاء مستقلاً عن الآخر. وهذا ما سماه بالقدرة على الاستقلال.
- القدرة على بناء وعي ذاتي على الرغم من الأبعاد المختبئة والمليوحة للشخصية.
- القدرة على عيش المتاقضات الذاتية كخير ذاتي للوجود الشخصي المعرض للخطأ وغير الكامل (المليئ باليقين في الذات، وبالوعي الذاتي، والخوف، والخطأ، والخجل من الذات، والأثانية).
- القدرة علىأخذ الواقع كما هو معطى دون تزوير وصور خيالية (امتلاك معنى الواقع، القدرة العقلية).

- القدرة على عيش الواقع بمحاسنه ومساوئه وأحزانه (عيش متاقضات الواقع: قوة الأن، القدرة على التألم والإحساس بالإحباط وعيش الحياة بفرح وحب).

لقد نقشت الفلسفة الإنسانية لفروم من طرف الكثيرين. وقد افترق الناس في أمرها إلى فرقتين: فرقـة تعتـبر هـذه الفلـسفة خـيالية ومـثالية، أو تـؤثـرـهـ في خـانـةـ المـتـشـائـمـينـ نـظـراـ لـقـدـهـ الـلـاذـعـ للمـجـتمـعـ،

وفرقه تدافع عن أطروحته وعن ثقته القاطعة في الحياة وفي الإنسان. يقول فروم في كتابه الإفتان بالعنف والحب من أجل الحياة : «إن ما هو حي يجذب، ليس لأنه كبير وقوى، لكن لأنه حي». ولنلمس هذا الإعتقاد القاطع في الحياة عند الكثيرين اليوم، وهو الذي يشجعهم على المضي قدماً في طريق البحث عن فن الحياة. من هنا فإن السبب الرئيسي للإهتمام بفروم حالياً هو طفوح البحث عن فن الحياة على السطح في المجتمعات المعاصرة.

### إحالة مرجعية:

النصوص التي استشهدت بها تجد مصدرها في الأعمال الكاملة لفروم، المنشورة في 12 جزء من طرقنا بشتوغارت ومبونينغ عن دار الطبع (Deutsche Verlags-Anstalt) 1999 (Deutsche Taschenbuch) 1999. لم يطرأ أي تغيير على الأجزاء العشرة الأولى المنشورة سنة 1980 / 1981 من طرقنا عن دار الطبع (verlag Deutscher Taschenbuch verlag)، والتي أعيد نشرها من طرف (Deutscher Taschenbuch verlag) سنة 1989، ما أضيف هنا هما الجزء 11 والجزء 12.

هنا بعض مؤلفات فروم، مما اعتمدنا عليه في نصنا الحالي، وكما هي منشورة في أعماله الكاملة:

1941 a: **Die Furcht vor der Freiheit**, GA!, S. 215-392، الخوف من الحرية،

-1947 a: **Psychoanalyse und Ethik/ Bausteine zu einer humanistischen Charakterologie**, GA II, S.1-157. التحليل النفسي والأخلاق.

-1956a: **Die Kunst des Liebens**. GA IX, S. 469-518.. فن الحب..

-1964 a: **Die Seele des Menschen. Ihre Fähigkeit zum guten und zum Bösen**.

GA II, S. 159-268. النفس الإنسانية

-1967e: **Die Faszination der Gewalt und die Liebe zum Leben** : GA XI, S 339-348. الإفتان بالعنف والحب من أجل الحياة»

-1973a: **Anatomie der menschlichen Destruktivität** (The Anatomy of Human Destructiveness). GA VII. تحليل الهدم الإنساني.

-1976a: **Haben oder Sein. Die seelischen Grundlagen einer neuen Gesellschaft**.

GA II, S 269-414. الإمتلاك أو الوجود.

### • الهوامش:

(1) (محاضرة ألقياها د. راينر فونك Rainer Funk آخر تلميذ ومساعد فروم بقاعة المحاضرات التابعة للإذاعة النمساوية يوم 9 مارس 2000، بمناسبة مئوية فروم ومرور 20 سنة على وفاته. لأهمية هذه المحاضرة فقد نقلتها الإذاعة النمساوية على أمواجها مرتين: يوم 18 مارس ويوم 23 مارس 2000. وفونك هو رئيس الجمعية العالمية لفروم، ومحافظ أرشيفها، محلل نفسي وفيلسوف ألماني بمدينة توينينغن، التي لا تبعد عن شتوغارت). ،المترجم.

(2) لمناقش كون هذا التطور هو خطير على التفكير العلمي الرصين كذلك. ولعل الوقت قد حان في العلوم الإنسانية من أجل الحد من اعتبار كل ما هو علمي في هذه العلوم هو فقط ما يعبر عنه بالرقم، لكي يتصنّع المرء بالواقع أكثر. وهذا الأخير هو "الإنسان" الذي لا يمكن تفنينه في رقم، لأن الأشياء وحدها هي التي يمكن أن ترقم. والإنسان من طبيعة الحال ليس شيئاً.

(3) هناك سببان لهذا التطور: يكمن السبب الأول في كون الحساب والتمكيم قد أصبحا كل شيء بالنسبة لعلوم الطبيعة والتكنولوجيا في هذا العصر. وقد أدى هذا إلى اعتبار العلم، وبصبح هذا كذلك في العلوم الإنسانية، قد أصبح يعني التكميم. فما لا يمكن تكميمه وقياسه من طرف شخص ثالث محايد لن يكون علمياً ولا ذات قيمة تذكر. وهناك جحافل من السيكولوجيين والسوسيولوجيين من يطورو نتائج التكميم، للقياس وللحساب للوصول إلى ما يسمى "الموضوعية" المعرفية. ومن طبيعة الحال فإن ذلك لا يمكن أن يقوم إلا إذا اعتبر الإنسان كشيء وكموضوع. أما السبب الثاني فيكمن في الإعجاب بإمكانية التقنية والآلة القيام بمهام بعينها. وقد فقد الإنسان امكاناته وقوته الذاتية باكتساب الآلات هذه الأهمية الكبيرة. ونعتقد بقدرة أن الآلات بإمكانها أن تؤدي وظيفتها أحسن من الإنسان. إنها (أي الآلات) تعمل بدقة وباجتهاد دون وسخ ودون تعب ودون مناقشة ودون أن تسقط مريضة نفسياً أو جسدياً ودون حاجة لتشجيع أو ثناء. ونعتقد كذلك أن هذه الآلات باستطاعتها أن تخلق الحركة والقدرة لتنشيط الواقع. فالطاقة في شكل بخار، كهرباء، غاز طبيعي، فحم، بنزول، وطاقة نووية بإمكانها أن "تحي" أشياء ميتة كالسيارات والطائرات والحواسيب. ولهذا فإننا نفضل أن نحل المشاكل التي بإمكاننا أن نحلها بالاعتماد على آلات عوض المؤهلات الإنسانية.

(4) يميز هذا فروم عن باقي الباحثين والنقدin المجتمعين الذين يحاولون أن يشرحوا الواقع فقط بموضوعها المعرفي، وضمان علمية هذه المعارف بإقصاء العوامل والتراقص الذاتية.